الأدب الإسلامي و المنجز النقدي الإسلامي

الأدب الإسلامي يتعامل مع المناهج النقدية العربية والأجنبية كافةً، في كلّ زمان ومكان، ويستفيد منها بوعيٍ وخبرة، بعد نقدها ومحاورتها، ويسعى لتخليص واقعنا النقدي من التبعية العمياء، وهو يقبل التيارات النقدية كافةً بعد دراستها وغربلتها والخروج منها بما يثري الحركة النقدية الحديثة، كل ذلك دون التشبث بمنهج نقدي دون آخر.
إن الأدب الإسلامي يعي أنه من الصعب الآن أن نحكم بوجود نظرية نقدية عربية متكاملة ومستقلة، فمن أهم الأهداف التي يأخذها على عاتقه العملُ على تعبيد الطريق للوصول إلى منجز نقدي عربي إسلامي قوي الشخصية ومستقل.

نُشير في هذا المقال إلى أن النقدَ الإسلامي يختلفُ – كذلك – عن النقد العربي؛ فهو يلتقي مع غالبية ما أُثر من التراث العربي النقدي، ولكنه – مع ذلك – ليس نقدًا عربيًّا خالصًا؛ وذلك أن النقد العربي في القديم والحديث فيه الكثيرُ أو القليل من الآراء والتصورات التي تختلف جذريًّا – في بعض الأحيان – عن تصورات النقد الإسلامي المنطلِقِ من العقيدة.

وفي وُسْع الباحث أن يورد من النقدِ التراثي العربي أكثرَ مِن رأي لا يستقيمُ على جادة النقد الأدبيِّ الإسلاميِّ.

ونكتفي في هذا المقام بإيراد شاهدٍ واحد، وهو قولُ قُدامة بن جعفر المشهورُ المتداول في قضية اللفظ والمعنى.

هل يمكن أن يقبل النقدُ الإسلامي – مثلاً – قولَ قدامة في كتابه الشهير" :نقد الشعر"، عندما يتحدث عن المعاني، ويُبيِّن أنه لا أهمية لها، وأنها متساويةٌ في القيمة، وأن صِدْقَها ككذبها، وحقَّها كباطلها، وأن الشأن وحده للصياغة؟

يقول قدامة في التعبير عن هذه الفكرة:

"المعاني كلُّها معرضةٌ للشاعر، وله أن يتكلم فيما أحبَّ وآثر، من غير أن يُحْظَرَ عليه معنى يَروم الكلام فيه... وعلى الشاعر – إذا شَرع في أي معنى كان؛ من الرِّفعة والضَّعة، والرفثِ والنزاهة، والبذخ والقناعةِ، والمدح والعضيهةِ، وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة – أن يتوخى البلوغَ من التجويد في ذلك إلى النهاية المطلوبة"...[1].

ولكنَّ هذا النقد الإسلاميَّ عميقُ الصلة بالتراث النقديِّ العربيِّ، إن له جذورًا مكينةً جدًّا في النقد العربيِّ القديم، وبين أيدينا نصوص كثيرة – تنظيرية وتطبيقية – منه؛ وذلك أن هذا النقدَ العربي – في صورتِه المنهجية – قد وُلد في ظل الحضارة الإسلامية، واستفاد من عطاءاتِها وتصوراتها، وكان الإسلام هو المكوِّنَ الرئيس له، ولكنه لم يكنْ دائمًا كذلك.

كان شأن هذا النقد الأدبي العربي شأنَ الأدب العربيّ، لم يستقمْ – دائمًا، أو عند الجميع – على الجادة الصحيحة، وخرج – شأن بعض الأدباء والنقاد العرب في كل زمان ومكان – عن التصور الإسلاميِّ أحيانًا، فاشتطَّ وغلا، وأخذ بروعة الكلمة وحدها من غير نظرٍ إلى هدفها، ووظيفتها، ونوع أثرها، وهو ما لا يتفق مع التصور النقديِّ الإسلاميِّ؛ كما أشرنا إلى ذلك.

– واللغة العربية الفصحى هي اللغة الأولى للأدب الإسلامي، لكنه لا يرفض أدب اللهجات العامية ما دام يخدم الرسالة الإسلامية الراقية.

– الأدب الإسلامي ينظر إلى الشعر على أنه لغة ورؤيا وكشف والتزام.. ويرى أن الشعر بشكل أو بآخر هو ما نجهل من اللغة لا ما نعرفه منها، إنه ليس ترفاً أو شيئاً فائضاً عن الحاجة، إنه ركن أساسي من أركان الثقافة البشرية، ولا يرى أن عصراً من العصور سيستغني مطلقاً عن الشعر إلا إذا فقد هويته وأصبح خارج التاريخ، إن الشعر يمثل عنفاً منظماً يُرتكب في حق الكلام الاعتيادي، إنه استخدام اللغة بشكل غير مألوف، إنه ينبع من ثقافة الشاعر وتجاربه، وهو يقوم على حساسية عالية تجاه اللغة وأبعادها في روح الشاعر وفي علاقته بالمحيط، وهو بشكل أو بآخر سبر لأغوار النفس البشرية يتجاوز الأشياء إلى ما وراء الأشياء، ويقدم رسالة إلى الناس في هذه الحياة.

– الأدب الإسلامي أدب ملتزم، لا يتنكر لقضايا الإنسان المعاصرة، ولا يغض الطرف عن المحن والمآسي التي يعيشها الناس، فتراه يتناول هذه القضايا والمحن ويعالجها بأسلوبه الفني المرهف ليقدم في النهاية وجهات نظر وحلولاً لا بدّ أن فيها دواء ناجعاً لكل ما يعانيه الإنسان حين يبتعد عن جادة الصواب والفطرة، فيبني شخصية الإنسان كأقوى ما تكون، ويحرره من الأفكار غير السليمة، ويدفعه إلى العمل والابتكار.

إن من حق بعضنا على بعض نحن السائرين في درب الأدب الإسلامي أن يكون بعضنا لبعض مرآة..

وأول تجليات ذلك أن يقرأ بعضنا لبعض، وأن يظهر ما في هذا الأدب الذي يقرؤه من الإيجابيات ويسعى إلى بيانها..

وأن يكشف ما فيه من السلبيات ليتم تلافيها في الإنتاج المقبل.

وأظن أن الأديب الواعي هو الذي يستفيد من النقد الذي يكشف عن أوجه القصور ويطرب له أكثر من طربه للنقد الذي يطري ويدغدغ شهوة الإعجاب بالنفس والإنتاج.

ولكن هذا لا يحدث في كثير من الأحيان..

ويظل نتاج الأدب الإسلامي حبيساً لا يتحدث عنه النقاد.. ولا يعلم به إلا القليل من القراء.

وكم واحد منا إذا ذكر فلان من الأدباء الإسلاميين نظر إلى من يشاطره الرأي فيه.. وأخفى وراء تلك النظرة نقداً صامتاً قاتلاً..

إنني أدعو نفسي وإخواني من القادرين على الكتابة إلى أن نطلق هذا الصمت القاتل..

وأن ننطق بآرائنا في نتاج بعضنا..

وأن يكون ذلك بأسلوب لا يجرح ولا يؤذي..

يقول الحق، وينطق بالصدق، ويسهم في الإصلاح حتى يستوي الأدب الإسلامي على سوقه.. وينتشر بين الناس، ويؤدي رسالته.

المراجع:

[1] نقد الشعر؛ لقدامة بن جعفر: ص 14.

2- جونسون ر، ف: موسوعة المصطلح النقدي الجمالية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة.